4- اتجاهات الرواية العربية (3): الاتجاه الوجودي

أ/ في الفلسفة الوجودية:

الوجودية من أحدث الفلسفات المعاصرة، وهي منظومة من الأفكار والرؤى التي انبعثت في سياق تاريخي حُطّمت فيه فكرة الإنسان الحر، نتيجة الحروب العالمية في بداية القرن العشرين، وبما أصاب الفرد من تشييء وقولبة داخل أشكال جماعية زرعتها الفلسفات الشمولية قبل اندلا ع الحروب.

لقد كان الفكر الألماني ومن بعده الفرنسي صاحبا السبق في وضع الأسس النظرية لهذه الفلسفة [ولو أنّ لها إرهاصات ضاربة في عمق الفكر البشري] وقد ارتكزت هذه الفلسفة على مقولة جوهرية محورها الناظم "أسبقية الوجود على الماهية"[1]، أي أنّ الإنسان يولد صفحة بيضاء، وأنّه هو المسؤول الأوّل عن بلورة جوهره، ورسم ملامحه، ووضع الحدود لنفسه، وهي المقولة التي تفرعت عنها دلالات الحرية والاختيار والمسؤولية وغيرها من المفاهيم الأخرى التي أطّرها كلّ من كيركغارد، وسارتر، غابرييل مارسيل، كارل ياسبرز وغيرهم.

ويمكن فيما يأتي تلخيص أهم ما دعا إليه الوجوديون ودافعوا عنه:

- الانتصار الدائم لمبدأ الحرية، إذ بدونها يتساوى الوجود مع العدم "فالإنسان لا يكون أوّلا من أجل أن يكون حرّا فيما بعد، فليس ثمّ فارق بين وجود الإنسان وكونه حرا"[2]
- العيش بعيدا عن قيود الماضي، وتذهنات المجتمع ومروياته الكبرى، وذلك بالتخلص من مسكوكات الجماعة الدينية والقيم الثابتة أو ما يدرج في خانة الأعراف والتقاليد.
- الدفاع عن حقوق الإنسان في المتعة والسعادة، وفي وجوب أخذ نصيبه مما يريده من ملذات ويكون ذلك بإعلانه عن رغبته بشكل حرّ، وفي حلّ من أيّ قانون يخضعه ما لم يؤذ غيره.
- صرف الجهد لصالح الذات أوّلا لتحقيق الرغبات قبل إعطاء الأهمية لرغبات الجماعة، وذلك في نطاق يفرض عليه المسؤولية تجاه نفسه وتجاه غيره، لأنّ الوجودية جاءت لـ "تدفع بالإنسان الفرد مرة أخرى إلى الواجهة"[3].

---

[1]- محمد شفيق شيّا، في الأدب الفلسفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2009. ص: 227.

[2]- جان بول سارتر، الوجود والعدم، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط1، 1966. ص ص: 82.81.

[3]- المرجع السابق نفسه والصفحة.

- العمل على إعادة الاعتبار لمشاعر الإنسان وغريزته.

ب/ الرواية العربية والوجودية:

بعد أن أفصحت الوجودية عن مبادئها بلغة فلسفية، فأقرّت الإعلاء من قيمة الإنسان، ووطّنت حريته وإرادته المطلقة، معلنة رفضها لكلّ ما يقمع الذات ويحدّ من اختياراتها، تجاوزت النص الفلسفي إلى النصّ الأدبي، حيث وجدت السرد حقلا خصبا لزرع مبادئها، ولاستنبات أفكارها، ولا أدلّ على ذلك مما فعله "كيركغارد" حين اختار القصص والروايات سبيلا لذلك، أو صاحب "الأيادي القذرة" "جون بول سارتر" الذي اختار النصين المسرحي والروائي لبعث فكره، ولذلك قيل: "إنّ الذين يكشفون وجودية سارتر من خلال روايته ومسرحه الأدبيين، هم أكثر بكثير من الذين يكتشفونها من خلال كتابه الوجود والعدم"[1].

لقد لجأ الفلاسفة الوجوديون إلى النصّ السردي عموما وإلى الرواية بشكل خاص [بما هي المحضن الأول للأفكار والرؤى] للتعبير عن فلسفتهم، وذلك لما تقدّمه طبيعة النص الروائي من طواعية لغوية، ومحفزات تصويرية تبسّط الصعب، وتبقي الأثر، وتيسر العسير على الفهم. وبانتشار هذه الفلسفة، تبنى كثير من الكتاب أفكارها، متأثرين بما كتبه سارتر وكيركغارد وكامو، معيدين إنتاج رؤاها بشكل جديد يحاكي طبيعة ثقافة كلّ كاتب، والسياق المختلف المنتج للنص[2].

لقد عرفت الوجودية طريقها إلى الأدب العربي منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين فتغلغلت فكرة وبنية، مثلها مثل سائر التيارات الغربية الوافدة التي تأثر بها الأدباء العرب إثر الاحتكاك الثقافي الحاصل، ولو أنّ هناك من جعلها الأكثر تأثيرا في تلك الفترة على الروائيين العرب حين "كانت الأفكار الوجودية تحتل مرحلة الصدارة في قائمة المؤثرات الأجنبية، ابتداء من الخمسينات وهي تبدو أكثر بريقا من غيرها من المؤثرات"[3]. ومع ما عرفت به الوجودية الغربية من اختلافات فكرية داخلية فقد قدمت نفسها على شكل وجوديات [وجودية كيركغارد/ وجودية بيردياييف/ وجودية هيدغر/

---

[1]- ينظر: محمد شفيق شيّا، في الأدب الفلسفي. ص: 255.

[2]- ينظر: السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة. ص: 280 وما بعدها.

[3]- حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، مطابع الإدارة السياسية، دمشق – سوريا، ط5، 1991. ص :91

وجودية سارتر/ وجودية كامي ...]، حاولت الرواية العربية أن توفّق بينها بالاعتماد على "المقولات الأساسية فيها وهي الذاتية والإرادة والمسؤولية والقلق والسقوط"[1]، هذا إضافة إلى إشكاليتي الاغتراب والحرية، وهي مقولات مشتركة اعتمد الروائيون العرب المتأثرون إحداها في الغالب لبناء النص والتعبير عن الرؤيا.

ومن الروائيين الذين تأثروا بهذه الفلسفة وتجلت هذه المقولات في أعمالهم بشكل جلي نذكر:

- **سهيل إدريس** (1925- 2008): أديب لبناني، من أكثر الداعين للوجودية و"من أشدّ الأدباء العرب حماسة للفكر الوجودي، وقد أعلن عن إعجابه بهذه الفلسفة وبتمظهرها في أكثر من موضع يقول بهذا الصدد لقد تأثرت بالرواية الوجودية موضوعا وتقنية"[2]، ويعود سبب تأثره إلى مواقف "سارتر" إزاء الشعوب المستضعفة والدول المستعمرة، ودعوته الدائمة إلى استرداد حقوقهم وحرياتهم وقد تبدّى هذا التأثر في ترجماته المختلفة لنصوص الوجوديين، وفي نصوصه الروائية على النحو الذي نجده في ("الحي اللاتيني"،"أصابعنا التي تحترق"، "سراب")، حيث جسّد قناعاته الوجودية وأثثها بتفاصيل سردية موزعة بشكل فني جميل على مستوى بنياته النصية.
- **محمود المسعدي** (1911- 2005): أديب تونسي، ملمّ بأشكال التراث السردي العربي القديم، وسمت كتاباته بطابع فلسفي وجودي، وقد تأتت هذه الفلسفة بتمظهراتها المختلفة إثر تأثره الكبير بـ "ألبير كامي" وبباقي أعلام الوجودية الفرنسية أثناء إقامته بباريس. وقد انتظمت كتابات المسعدي – تبعا لذلك- وفق خيط فكري ناظم بدايته التجربة الوجودية وسؤال الإنسان ونهايته إثبات أحقية الذات في التخلّق الدائم وفق مبدأ الحرية المسؤولة، ووفقا لهذه الصورة تنزل نص "السد" ونصّ "حدّث أبو هريرة قال ..."، ليخوض الكاتب من خلالهما مغامرة وجودية، تسعى إلى تغيير الموروث/ الماضي بخلق عالم جديد.

---

[1]- السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة. ص: 282.

[2]- ينظر: نزيه أبو نضال، التحولات في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2006. ص :91.

- **ليلى عسيران** (1934–2007): مبدعة لبنانية، صرفت زمنها في الدفاع عن قضايا المجتمع اللبناني والعربي [على رأسها القضية الفلسطينية]، وقضايا المرأة، عرفت ليلى بكتاباتها المجسدة لمعاناة بيروت، والخيبات العربية، حتى لقبت بمؤرخة الخيبات العربية. من أعمالها المتسمة (بالقلق والحزن والسقوط) أذكر: "الحوار الأخرس" و"المدينة الفارغة" و"عصافير الجنة".
- **مطاع صفدي** (1929 – 2016): مفكر وأديب سوري، اشتغل على الفلسفة الوجودية وتأثر بأفكارها، تجلّت هذه الفلسفة في روايتيه "جيل القدر" "ثائر محترف".
- **جبرا إبراهيم جبرا** (1920 – 1994): روائي ومترجم ورسام وناقد تشكيلي فلسطيني، استقرّ ببغداد، عرف بثوريته الأدبية، ومحاولة خوض غمار التجريب الروائي نتيجة لاحتكاكه الثقافي المباشر بالمنجزات الغربية، عرف بغزارة الإنتاج، تجلّت بعض ملامح الوجودية (القلق/ العبث/ الحرية) في نصيه "صراخ في ليل طويل" "السفينة".

لقد حاول هؤلاء الروائيون [وإلى جانبهم المصري محمود حنفي بعمليه "المهاجر" و"حقيبة فارغة" واللبنانية ليلى بعلبكي بنصيها "فتاة تافهة" و"الآلهة الممسوخة" وإسماعيل فهد إسماعيل ونجيب محفوظ ببعض نصوصهما ... وغيرهم] تقديم أعمالهم "على أنها صورة للحياة الإنسانية، وفي نفس الوقت تعليق على هذه الحياة. صورة قدّمت الحياة الإنسانية مصداقا لما يقوله "كولن ويلسن" عن الإنسان المعاصر من أنه (حياة بلا معنى) و(حادث اعتباطي في عالم لا مهتم، ورغم مطامحه فهو يعاني الملل وفقدان الهدف والضعف والمرض والإحساس بالجدب)"[1]، فالرواية من هذا المنظور رؤيا للوجود وتعبير عنه من منظور المبدعين الذين يحاولون تقديم "العالم الوجودي بما فيه من مقولات وما يتضمنه من مواقف للإنسان الوجودي ... في محاولة منهم لتقديم تقليد للحياة العبثية خارج وعي أبطالهم الوجوديين"[2].

---

[1]- السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة. ص : 281.

[2]- المرجع نفسه. ص: 313.

ومن ضمن الملامح الوجودية التي اتسمت بها كتابات هؤلاء الروائيين أذكر:

- إكساب البطل الحرية المطلقة فيما يفعله، والإفصاح عن إرادته الكاملة في اتخاذ القرار، والنضال الدائم لإثبات الوجود.
- إعلان الثورة على مترسبات الماضي الجماعية والانصراف إلى الحاضر والمستقبل.
- رفض كلّ ما من شأنه أن يقود إلى نوع من العبودية لأيّ سلطة كانت.
- إعلاء شأن العبث في النص الروائي من خلال التمرّد على القيم من طرف الذوات الفاعلة في النص.
- تسخير المكان بتقاطباته المختلفة لخدمة الفكرة الجوهر.
- الانطلاق في التغيير والإصلاح من الفرد وصولا إلى الجماعة، انتصارا للذات وتبجيلا لها.
- إسناد التأزم السردي إلى محفزات داخلية/ نفسية عادة ما يكون القلق والحيرة سببها الأوّل.
- مطابقة وعي البطل لوعي المبدع.